

نيتشه وأوروبا

للاستاذ هنري ليختنبرجيه

من بين الأخطاء التي لا يزال يقع فيها الذين يكتبون عن نيتشه ، أنهم يذكرونه كلما ذكرت وجود الكفاح السياسي الحاضرة . بل يزعمون أنه رسول إلى أحد الأحزاب السياسية أو الاجتماعية في عصرنا . وليس أسهل من هذا الزعم . فأننا إذا نظرنا في آراء « نيتشه » المعروفة في العراق القائم بين « السادة » و « العبيد » أي بين « الوحش الأشقر » (١) و « انقطاع » (٢) وحصرنا أقواله ضد الديمقراطية والاشتراكية وأضغنا اليها مديحاً للارستوقراطية والدم النبيل وعقيدته في أن يسود العالم ملك مستبد يكون « سيد الأرض » وثناؤه على كبار الفاتحين من « قيصر » إلى نابليون ، لاستطعنا أن ندخله - سواء امتدحناه أم ذمناه - في عداد خصوم الحكم الشعبي واعداء النظام البرلماني وأنشأ الاعلى الديمقراطية ونصيراً كبيراً لسياسة القوة أو رسولا داعياً إلى الفاشيزم .

وحسبنا أن تلقى بنظرة عجيلى على أدب نيتشه لكي نوقن بأن الحكم عليه بهذه الطريقة إنما هو حكم سطحي . فلم يكن نيتشه مجرد مفكر من حزب البين . ولقد صادف أشد المعارضة من المحافظين والمستمسكين بالتقاليد من كل نوع . وأما أنصار مذهب السيطرة الذين أخذوا على عاتقهم السعى في تنمية قوة الدولة الحربية والاقتصادية ، فيرون في نيتشه خصماً الدأى يجب أن يكافح تأثيره . وكذلك أنصار النظام الذين يدفعون غارة الشك عن عقيدتهم الدينية أو الادبية أو السياسية ويعتدون أنهم ليسهم من هبات تنفر منه النفس الانسانية فأنهم ينهضون في نيتشه على أنه عدو

(١) يعنى الرجل الأبيض المتمدين

(٢) سواد الشعب

للمسيحية بـثأثر على القانون الادبي المؤلف، ومثل المبادئ السيئة.

ومن الممكن أن يثنى المفكر العدمي (مهاست) على شجاعة نيتشه الفكرية، إلا أنه مع هذا يستذكر فيه نموذج المفكر الشائر على كل نظام، الهدام لكل حضارة. وفي الواقع أن يقال أن امام نيتشه من الخصوم بوجه عام فئة الراضين عن النظام الموجود وانصار السلطة، أي أولئك الذين كانوا يشعرون بالامس بالزخى في مجتمعاتهم الرأسمالية وأصبحوا اليوم لا يطمحون إلى أبعد من تجديد نظام أوروبا المادي واستئناف الجهود المبذولة في سبيل حياة أرغدوا أكثر رفاهية. هذا من جهة. ومن جهة أخرى بخاصمه أولئك الذين يدعون إلى مثل أعلى في النظام والتقييد والطاعة والذين ينظرون بكثير من الخذر إلى هادم الانظام الذي يضرب في الفلسفة ضربات المداد بالمطارقة والسندان. عدو الحكومة والكنيسة. عدو القانون الخلقى المعترف به. عدو الجماهير.

وإذا كان من الجلي أن الديمقراطيين لا يستطيعون أن يعتبروا واحداً منهم دون أن يكونوا مثاليين، وإذا كان من الممكن ألا يكون ثمة ما يدهش في أن بعضهم قد عدها رستوقراطياً متطرفاً عنيفاً مداحاً للرق والعبودية ومن المجتهدين لفكرة استغلال الإنسان للإنسان ولو من طريق نظري. فذلك لأن نيتشه قد أثار اهتماماً عظيماً، لا بين المفكرين من حزب اليسار وحدهم بل في دوائر العمال نفسها. لأن من الواضح أن نيتشه ينتمى إلى الثوريين على اختلاف مشاربهم. إما من ناحية مقالاته في مهاجمة المجتمع الحديث وإيمانه من ناحية الشدة التي ناء بها على الأرستوقراطيين أنفسهم الذين تكلفهم الاشتراكية وهم أنصار السيطرة من الوطنيين والملكيين المحافظين على التقاليد والرأسماليين. . . . ذلك «الأرستوقراطي» — كما ينعته — يستذكر كل رجعى إلى الماضي ويعان في صراحة عدم مبالاة بالأمراء والتساوسة الذين يبعون

الحياة بخديمة بعضهم البعض . فلا عجب إذا شعر الثوريون بأنهم مبالغين بالغريزة الى ذلك الشئز على النظام الرأسمالى ونظام الحكم الحديث . وينبغي أن نضيف الى ذلك أن البسطاء قد لاحظوا نبأ قلب ذلك المفكر الفذ . وشعروا بتدبا أنه ليس فى صف الكبراء ضد السواد من عامة الناس ، ولا هو على الأخص نصير للأغنياء ضد الفقراء

وليس يكفى فى هذه الاحوال أن نوضح فى صيغ بسيطة موقف نيتشة حيال المسألة السياسية ، لأنه إذا أريد انصافه فلا بد من النظر عن قرب فى المعنى الحقيقى العميق الذى تحمله صيغته وتعاييره .

ولا جدال فى ان العداء للمثل الديمقراطى الأعلى أو بالحرى نظام الحكم الديمقراطى الحديث ، إنما هو عنصر جوهرى فى مذهب نيتشة

ولا يخفى أنه نظر فى التطور التاريخى على اعتبار أنه يهبط بالانسانية الى الحالة التى يصير بها الناس قطيعا منظما . وهو حين عرف الديمقراطية قال إن الديمقراطى باعتباره خلفا لذلك المسيح العظيم الذى جعل الناس بعيما متساوين أمام الله ووعدهم بالنعيم الكامل من بعد الموت . يجب أن يشهد مساواة الجميع أمام القانون ويحضرهم على تحقيق ما يحلمون به من السعادة القصوى على الارض والطموح الى خلق مجتمع يتدفى فيه كل تفاوت وكل مفاضلة بين الاشخاص حيث يكون الناس ذور حقوق واحدة وواجبات واحدة ونصيب واحد من السعادة بوحى لا يكون ثمة نظام للطبقات ولا يكون حاكم ومحكوم ولا سيد ومسود ولا ثنى ولا فقير ، ولكن تكون الجمعية المتساوية المتآخية مكونة من وطنيين انعدمت الفوارق بينهم . ذلك لعمري هو المثل الاعلى الذى يطمح اليه جميع الديمقراطيين من أى مذهب كانوا جمهوريين أو اشتراكيين أو فوضويين . والكل متفقون على نبذ كل سلطة عليا واستنكارها . فهم لا يريدون «أولاد ملائكة» ويتطاعون الى محو كل امتياز

وينشدون الاخاء الذي يجعل من الناس جميعاً خصوصاً للعدالة التي يعد القصاص أداتها ، ويميلون الى عد كل عقوبة كحيف وظلم . وتألف قلوبهم على عبادة الرحمة والارتياح من الالم والاعتقاد بانه يلزم محو كل الآلام من العالم ويؤمنون بحق « الجماعة » في ذاته ويمتقدون أن في وسع كل فرد ومن واجبه أن يجد سعادته الخاصة في سعادة الجسم الاجتماعي كله وان من الممكن الوصول الى تلك السعادة بان يعطف كل على أخيه وبالأخاء العام .

هذه الغريزة نفسها — غريزة جعل الناس جميعاً في مستوى واحد ومتساوين كل المساواة — تنضح أيضاً في ادراك نيتشة للعلاقات بين الرجل والمرأة . فان مذهب النسوية يكمل عمل الديمقراطية ، وكلاهما ممقوت من نيتشة . فانه لم يسلم بان المرأة معبودة وثار ضد الرأي القائل بان المرأة مخلوق سام ذو غرائز أكثر تهذيباً من غرائز الرجل وأحاساس أدبي أرق وأصدق من احساسه ، وأنها قادرة على قيادة الانسانية الى أرفع المصائر وأسعدها . ولقد خص بشخرياته القاسية المرأة المتحررة التي نفت عنها الخوف من الرجل وفقدت احترامه والتي لم تعد ترضى بالتسليم له إنما تريد أن تعامل منه معاملة المتكافئ . وكان يرى أن ما يبديه الجنس الخشن نحو الجنس الضعيف من الإحترام والمراعاة إنما هوسبة واهانة ، وأراد أن تكافح المرأة مع الرجل في معترك الحياة . ولقد أظهر مقتناً شديداً لذلك الصنف من النساء الذي يطلق عليه الفرنسيون اسم « بابلو » (أي الجورب الازرق) ويريد بذلك النساء اللواتي يدعين المعرفة ويشتهلن بالآداب وبالعلوم والسياسة سفهاً وادعاءً وقد عنى المرأة الكتابة في المحال التجارية في الإدارات والتي تقوم في المجتمع الحديث الذي تغلب فيه الروح الصناعي على الروح الارستوقراطي والحربي بضجة كبيرة في سبيل مكافحة قبيد المرأة واستعبادها وتوليها تنظيم الحركات الصاخبة للحصول على مثل ما للرجل من حقوق .

ثم ماذا يمكن أن تكون نهاية ذلك التطور ؟ هو ألا يكون في العلم تباين ولا

جمال . وأن يستحيل الى شبه محجر واسع يحتشد فيه ملائمة المتساوين في عادية الادراك ، وفي العجز . ملائمة يكابد الآلام البليغة ولا ينعم أيضا بالأسرار العظيمة ؛ ملائمة يعالج حياة صامتة بلا غاية ، وهو ما يعد في نظر نيتشة خطأ جسيماً . وإذا كان الرجل المتمدين المرفء الحصيف ، اذا كان هذا « الأخير زمانه » الذي تكاثر عدده وانتشر في الارض هو المثال الذي صارت له الارجحية نهائياً في عالمنا الحاضر ، فذلك لعمري نهاية المغامرة العظيمة للعنصر الابيض . نهاية ذلك الجهد الهائل للمخلوق الذي لا يزال يتجاوز طاقته بتوليد أشكال وقوالب جديدة سامية ويمتضى ذلك الارتقاء العجيب الذي يبدأ من دودة الارض الى القرد ، ومن القرد الى الانسان ، ما فتى ذلك الانسان يتراجم الى الحيوانية أكثر مما يرتفع الى درجة الانسان

وإذا كان نيتشة يرى أن اسمى وظائف الانسانية ينحصر في نشأة العبقري وقيادة السبرمان . وأن الشعب إنما هو المهد الذي تتخذة الطبيعة لاختراع بعض الرجال العظماء ، فلم يكن في وسعه إلا أن يكون عدواً لكل نظرية تقول بأن الفرد مقيد بالجماعة . كان من اعداء « هيجل » الذي يرى الحكومة بمنزلة « الآله الحق » وأنها « الآخر المطلق في ذاته » ويفنى الفرد في الدولة ويقول بأن الافراد لم يخلقوا إلا من أجل الدولة التي تتمثل فيها وحدها الحرية والحق المطلقين . وبناء عليه فقد كفح بقوة مذهب « هيجل » للعمل والايمان بالدولة الذي كان شائعاً في ألمانيا الامبراطورية عندما سنة ١٨٧١ سواء كان عند الافراد الذين يحتفظون الى حد لا مثيل له باحترام النظام والملكية وتقاليده الحكم المطلق أو عند الرؤساء الذين كانوا يتصورون في دين الدولة والسلطة « معبوداً جديداً » وهو ما قضى عليه نيتشة في فصل مأثور من فصول كتابه « زار اتوسترا » . قال على لسان زار اتوسترا إن العالم الحديث لم يعد يعرف الشعوب وإنما يعرف الدول لا غير ، إنما الدولة هي الاسد الذي يزأر ويبتاع . على انه ليس في الارض اعظم مني . انا بنان

الله الأمر . أن الدولة تجتذب إليها جمهور السخفاء والسطحيين وتفنيهم فيها
وتضعفهم ثم تضعهم . غير أنها وآسفاً تسحر بها كاذبها النفوس الكبيرة والقلوب
النبيلة التي تطمح إلى الاسراف ؛ وتستعملها وتتخذ من عظمتها وبسالها
وقضائها وحكمها زينة لها . كذلك تعظم قوة الدولة وهي تلك القررة المشؤمة التي
يسمونها « حياة » وما هي إلا انتحار بطيء للجميع حيث تتقاتل شرذمه من القررة تقاتلاً
وحشياً على الثروة والسلطة . وليس لدى الفكر الحر من مناص غير أن يطرده ذلك السفه
الفاحش . « هناك حيث لا تكون دولة . هناك فقط يكون الإنسان غير السطحي .
إلا إنسان الكمال . أنشودة الضرورة والحن الوحيد الذي لا يعادله أى حن
آخر — هناك حيث لا تكون دولة . هناك انظروا أيها الاخوان : ألا ترون
قوس قزح وقنطرة السبرمان ؟ » (من كلام زاراتوسترا) كذلك كان نيتشه يمت
الدولة لأنها تستعبد الفرد ذى المواهب السامية للمجموع ولأنها تجعل غايتها
الاستحراز على السلطة السياسية أو الاقتصادية دون أن توجه مجهودها نحو المثل
الإنساني السامي ولأنها لا تجعل على رأس الدولاب الإدارى « خالق القيم الجديدة »
وأما تجعل على رأسها « عاهلاً » يدين بمركزه إلى مولده وإلى أريستوقراطية النبلاء
والدماء ومحدثى النعمة وذوى اليسار من كل نوع



على أن عباد الدولة لا يتمسرون على جمل الفرد مقيداً بالجماعه ، إنما يبقون
عدا ذلك صيغ الدولة بصيغة وطنية وإن تكون صاحبة الفوز المبين والشأن العظيم .
يريدون عظمة وفوز دولة وطنية . فيخلطون الدولة بالوطن . ولقد ثار
نيتشة على هذا المذهب ثورة كانت ذات صدى بعيد . فقد عده البعض ممن
لا وطن لهم . وفي الحقيقة أن نيتشة لم يكن عدواً لمذهب الوطنية ولا فرضواً أما من
يؤيد أن نيتشة كان ينتقصه الشعور الوطنى استناداً على حملاته المشهورة ضد المانيا .
فإنما يدل على أنه لم يدرك الطريق التي فهم بها نيتشة حب الوطن

ولا جدال في ان نيتشة لم يكن بأية حال وطنياً وانه كفح على الاخص.
ذلك الضرب من الوطنية الذي راجع من حوله في المانيا ونفى به مذهب
الجامعة الجرمانية . فانه في الوقت الذي اشتدت فيه وطنية الالمان غداة الحرب،
السبعينية وقضت حماسهم ، كان قد اعتنق وجهة نظر فرق مستوى الوطنية الشائعة
عند مواطنيه فلم يرغب في فوز العنصر الجرمانى وانما اراد نهضة « الالمانسم »
(الثقافة الاغريقية) وسيادة نوع من الثقافة لاهو بالاغريقى البحت ولا بالالمانى
الصرف ، وانما ثقافة اوروبية او انسانية عامة .

لقد سلم نيتشه في البدء بأن المانيا هي المهد الذي تنهيا فيه الثقافة الجديدة
وتستحيل العبقرية الالمانية الى عبقرية اوروبية الا أنه لم يلبث أن تخلى عن ذلك
الرجاء . وسرعان ما صارت المهمة التي اصطفى الله المانيا من اجلها في نظره محتملة
فالقد استطاع أن يحتفظ في صميمه بالامل الغض في أن يقوم وطنه في القريب
بدور مجيد في تطور الانسانية ، غير أنه لم يلبث ان احس احساساً قويا بالفارق
العظيم الاليم الذي لا يطاق بين المثل الاعلى للعبقرية الجرمانية التي تصطبغ
في نهاية الامر بصبغة انسانية ، والعبقرية الالمانية الحاضرة التي كرهها نيتشة
وازدرأها وكفحها بشدة

وقد عارض بصراحة تامة وطنية الدولة بمذهب الاختلاط ، على اعتبار
أنه قاعدة لازمة للمستقبل القريب في أوروبا الى مباشرة مهمة التوحيد العظيمة
التي لم تستطع مدن الاغريق القديمة أن تحققها في الوقت المناسب ، فان جعل أوروبا
ولايات متحدة ضرورة سيكولوجية وتاريخية واقتصادية

وفي هذه الحالة عارض نيتشة وطنية الدولة بمذهب الاوطان « كوسمبوليتسم »
فاعتبر ذلك مبدءاً مساداً ، ولا بد منه للمستقبل القريب . وان على أوروبا اليوم
ان تباشر مهمة الاتحاد العظيمة التي لم تعرف مدن اليونان القديمة ان تحققها في
الوقت المناسب . وان تأليف ولايات متحدة من أوروبا انما هو ضرورة سيكولوجية

وتاريخية واقتصادية يتهماً حدوثها بتأثير حالات التقسيم والبتير الذي تكابده الأمم، وبأنها ليست عنصر مؤلف ينشأ من تصاهر العناصر المختلفة ونعني به عنصر الرجال الاوروبيين. ولا بد من ان يتحقق آجلاً او عاجلاً حلم نابليون في خلق قارة اوروبية متحدة وسيدة العالم .

ويقوم اليوم ضد ذلك المذهب الداعي الى توحيد اوروبا حركة رجعية وطنية ذات صبغ وضجيج ولكنها عاجزة في صميمها لانها حركة مصطنعة . والوطنية في جوهرها حالة ارغام تفرضها اقلية صغيرة ذات نفوذ على السواد . ولا تعيش إلا بالخداع والكذب والعنف . وليس لها أصل راسخ في روح الجماهير وإنما تنصل بمصلحة بعض الاسر او بعض الطبقات الاجتماعية . ومن واجب الفيلسوف اذا تعرف هذه الحالة أن يصير اوروبياً صادقاً او يعمل بنشاط على توحيد الأمم والثقافات . ويرى « نيتشة » ان ذلك المثل الاعلى لما فوق الوطنية « سورناسيونال » والعنصر الاوربي الاسمى الذي يتهماً في كل مكان لا يلبث أن يتحقق .

ولقد كافح نيتشة بجرى الوطنية المعاكس الذي يمرض قيام اوروبا المتحدة وكافحه بتلك الشدة وعدم التساهل اللذين هما من صفاته الطبيعية . وبازاء الحافضين من اعداء الحاضر أبى ان يتعصب للاحقاد التي تفرق العالم التمدن . ولم يمتد شئنا اشد من مقته لتلك الحالة الدائمة من عدم الثقة والحقد اللذين تعيش فيهما الأمم اليوم وذات المكر الشنيع الذي ينحصر في انكار كل ميل الى الفتح وكل غرض للاغتصاب مع اساءة الظن دائماً بالجار واتهامه باسوأ الاغراض واقبح المقاصد . وقد وصف هذه الحالة بأنها مجرد من الانسانية اسوأ من الحرب . لانها تستثير الحرب وتحض عليها بافتراض النيات السوداء في الجار . وحسب ذلك باعثاً على الاعمال العدائية . وليس باحكام توازن القوى او بتخفيض التسليح المطرد يمكن الوصول الى سلم دائم، وإنما بان يكون هناك دولة واحدة اقوى من الجميع

تفرض السلم على سائر الدول . قال « من الممكن ان يأتى يوم ينادى فيه شعب بلغ القمة في النظام العسكرى وتعود ان يبدل اعظم التضحيات في سبيل جيشه - ينادى عن اختيار : اننى اكسر سيفى . ويهدم كل ما وضعه من النظم العسكرية فان السلم لا يأتى إلا بتهدئة النفوس . لا يمكن ان يكون الا فى اليوم الذى ترى فيه الجمعيات البشرية » ان الموت خير من الـ كراهة رسوء الظن . وانه خير للمرء ان يلقى شر مصير دون ان يثبت الكراهة بين الجماعات ويغضبهم في بعضهم البعض . وهو قول حكيم لم تعرف اوربا لسوء الحظ ان تصفى إليه وتعمل به .

وبالغنيتشة فى الحملة على وطنية « الحيوان ذى القرون » (يريد الرجل السياسى) وشنع بها ولم يترك صيغة هينة لم يستعملها فى وصف تلك الوطنية التى تحض كل شعب فى اوروبا على اقامة المتاريس من حوله واحاطة نفسه بسد منيع واما ذلك الضرب الالماني البحت من مرض الوطنية فانه ينحصر فى مذهب الجامعة الجرمانية الذى كان يستنكره وعلى الاخص لانه المانى . ولقد ثار ضد تلك السياسة التى تجعل الروح الالماني عقيا جامداً بادخال الغرور عليه . تلك السياسة الحقيرة التى تديم الاحقاد وتستبقى اوروبا فى نظام الدول الصغيرة . وازدرى النشيد الوطنى الذى يقول بان المانيا فوق الجميع .

الا ان نيتشة لم يقتصر على هذا الموقف السلبى البحت بازاء الدولة . حقاً انه دل على كراهته للديموقراطية وللقطيع المنظم الذى يعرض على انه غاية فى ذاته . ولم يغب عنه أن الدولة ، طبقاً للنظام الذى بيناه عدو للذاتيات الكبيرة . وانه لا ينبغي للبرلمان ان يستسلم لنظامها مهما كلفه ذلك . وانما يتكون ويعظم شأنه خارج دائرة الدولة ، بل غالباً ضد الدولة — ويقال من جهة أخرى ان نيتشة لم يكن الا فوضوياً ، ولكنه كفح الفوضى والحكم المطلق . وأخص ما اهتم له نيتشة تكوين العبقريّة والنخبية ذات المواهب المتفوقة . لقد شغف بتأليف « اريستوقراطية جديدة » ينتخب أعضاؤها بمنتهى التدقيق . وأدرك ان الانسان لا يستغنى عن

حياة المجتمع، وبناء عليه، فليس في وسع الفيلسوف ألا يبالى بالمسألة الرئيسية : مسألة نظام القطيع (سواد الشعب) . ولما تناول بحث الجماعات البشرية من هذه الوجهة اتخذت أحكامه على الدولة صبغة أخرى ، مختلفة جداً باختلاف عن صبغة أحكامه السابقة .

لقد فكر نيتشه تفكيراً طويلاً وعلى الأخص في السنوات الأخيرة من حياته — في الوقت الذي كان يعد فيه عناصر مذهبه في عبادة القسوة — فكر في مسألة الدولة، وانتهى الى اعتبارات شطت به عن تلك «الفردية الفوضوية» التي زعم بعض النقاد انه استطاع أن يحلها في تأليفه .

أدرك نيتشه في مبدأ الأمر الخطر الجسيم الذي تجلبه للانسانية السيادة الحاضرة للانسان «المنحط» فان ظاهرة الانحطاط مهما كانت طبيعية ولازمة تفضى الى نتائج سيئة ما دام ترقى الحضارة يؤدي الى تسكاث العناصر الضارة من بني الانسان إذ تشهد ازدياد المجانين والجرمين وذوى الهوس من أرباب الفنون ومن اليهم . ولقد تفاقم الانحطاط وعم بتأثير الاضطراب الذي يعتري الأحوال الاجتماعية وينجم من الثورة ومن أوهام المساواة . فان الطبقات الدنيا — من المنحطين والمضطهدين والارقاء من كل نوع — قد اختلطت بالطبقات العالية بحيث لم يعد في العالم عنصر خالص، وتلاشت أريستوقراطية الدم والفرارز الموروثة، وبالاختصار انحطت العناصر الأوروبية . وازدادت في كل مكان كراهة ذوى الامتياز ومن رفعهم الخط الى مركز استثنائي . بل لقد خضع الممتازون أنفسهم للوهم الديموقراطى وصار على الذين يبعون القوة أن يملكوا الشعب ويملقونه . أما العباقرة — أمثال «فيكتور هيجو» و «ريشارد فجنر» — فانهم يكونون السند تعبر عن العواطف الكبيرة التي تستثير حماسة الجماهير: الرحمة والايان بالالم الانسانى وتمجيد الضعفاء والمضطهدين . وجلى أن سيادة الشعب بالائتلاف مع المنحطين من الطبقة العالية يفضى الى خطر الفوضى . أو على الأقل الى حالة عدم الثبات .

ولاحظ « نيتشة » في وجوب تأليف مثل اوسط من الانسان سليم ومعتين
 تسبباً ، كعلاج ضد النتائج المدمرة للاضطراب الاجتماعى . ومن شأن هذه الحالة
 الوسط المتصفة بالنضيمية والجديرة بالاحترام ، انها لطبايع النخبة الممتازة خطر وفتنة .
 أما من حيث كونها فتنة . فان من الممكن أن ينقاد العبقري للتأثر بالمثل الاعلى
 الذى يؤمن به الانسانى الوسط وينزل الى مستواهم ويتقنى بمديح « الاعتدال »
 وتمجيد العامل المتجهد النافع المتواضع . وأما من حيث كونها خطراً فان العبقري
 ليس موضع ريبة في نظر الانسان الوسط أكثر منه في نظر المنحط . كلاهما يسيء
 الظن به . وإنما يسعى الانسانى الوسط في ازعاج ضمير العبقري بأن يفرضوا عليه
 عقائدهم الخائمية ويقنعونه بأنه ليس هناك واجب أسمى من الاخلاص لخيرهم
 وخير القطيع (سواد العامة) . ومن شأن الانسانى الوسط أن يراقبوا العبقري
 بحذر كما لو كان قذيفة خطيرة لا بد من جعل انفجارها بلا خطر أو بالخرى منزع
 ذلك الانفجار . وليس هذا الفوز المثل الانسانى الوسط بمجرد حادث لاربية قيمة .
 بل هو الى ذلك عنصر لازم ضرورى لترقى النوع البشرى .

وفى الحق ان الانسان لا يعنى القوة لا لجود كونه انساناً بل إنه يرغبها ويتطلبها
 على أنه نوع بشرى . وتجاهد الانسانية في سبيل الظفر بالحد الاقصى من القوى
 وان تبسط باشد ما يمكن سيطرتها على الاشياء . ويبدو أنها ان تبلغ ذلك الخد
 اذا لم تنجب غير شخصيات قوية أو كان أكثر ما تنجبه من تلك الشخصيات .
 لان التاريخ قد دل على ان العناصر الراقية لا تعمر طويلاً . بل تضمحل على عجل
 باستنفاد قواها في الحروب . وتلاشى بسرعة من جراء مطامعها وتعطشها الدائم
 للمخاطر العنيفة . ومن شأن الاقوياء أنهم يسرفون في قواهم ولا يدخرونها .
 ويسرفون بلا حساب . وليس المدة في نظرهم أية قيمة . أنهم يؤثرون للنوع حياة
 قصيرة ولكن موفرة النشاط والعمل وهم عند ما يبدلون ما ادخروا من قوى
 يرون أنفسهم أشد من الضعفاء هزلاً ونفاداً في الارادة واحتمالاً في التوازن .

فإن عصر العظمة الانسانية إنما هو زينة تكلفها ثمنًا غالياً
 وظاهر أنه ينبغي للانسانية إذا أرادت الحصول على الحد الأقصى من ثمار
 نشاطها وقوتها ألا تقتصر على إنشاء عناصر قوية ومسرقة تنلاشى بسرعة وتحترق
 بالشملة الداخلية التي تلتهمها، وإنما يجب أن تخالق في الوقت، نفسه مثال الانسان
 الوسط القابل للنظام المتبع والاطول بقاء، وإن تجدد أدنى عناصر النشاط
 الانساني وظيفتها النافعة إذن يسكون من المناسب بناء الاداة الاجتماعية العظيمة
 بحيث يتاح لجميع القوى الفردية، حتى الحقيرة منها، ان تنتج الحد الأقصى من
 ثمرة النافعة التي تستطيع انتاجها . وتلك هي الغاية التي نسمى اليها اليوم
 إنما نحن نتقرب من حالة الحضارة التي تستغل فيها الارض صناعياً في دوائر
 واسعة وفي المجموع .

وفي هذه الحالة يكون الانسان الوسط عنصر الازم للاقتصاد العالمي . وجدير بالفيلسوف
 الا يحترقه والا يزدري نقائصه — الجبن والسفاهة والصغار والاستجداء —
 ولما كان الفيلسوف هو المثل الشاذ فمن واجبه أن يشمل بحمايته القاعدة المتبعة وان
 يؤيد عند الانسان الوسط ، الرضا بما هو فيه وبما قسم له

كذلك تتضح لنا فكرة نيتشة فقد كان يعتقد في كل وقت ان الحضارة غير
 ممكنة بلا ارقاء . وتناول هذا المبدأ المبني على القدر المحتوم في البدء بنوع من
 التشارزم الميتس . واسكنه عاد فقبلة على انه حادث طبيعي لا ينبغي ان يستثير
 الحكيم . هل الانسان الوسط المتواضع العامل المعتدل ، ذلك الانسان الذي
 يسرنا أن نصفه « بالطيب » هل هو في الحقيقة سوى « المثل الاعلى للرقيق :
 رقيق المستقبل » ؟ ولقد مهدت الديمقراطية والاشتراكية السبيل الفعلي لذلك
 الاستعباد الذي تكابده الجماهير حين نزلت بالفرد الى حد الحالة الوسط
 بل الى حد الآلة الصامتة . ورضي نيتشة بقبول هذا المبدأ دون أن يستسلم للشعور
 الكاذب . قال « يلزم أن نتعلم التفكير في حال الجماهير دون أن نكون أكثر عطفاً عليها

من الطبيعة . فاتها لم توجد في تلك الحالة الالحفظ النوع . فإذا كانت هناك مسألة
خاصه بالعامل الاوروبى فأن منشأها يرجع الى شعورنا الكاذب والى بلاهتنا :
فأننا اذا اردنا ان نخلق عنصرا من الارقاء الصالحين وجب علينا أن نخلق الوسائل
المؤدية الى ذلك الغرض وان نطبع ابن الشعب على الطاعة والتضوع والرضا بصير
بما قسم له . وان من الخطأ ارغامه على الخدمة العسكرية ومنحه حق الاعتصاب
وحق ابداء الرأى وتسميم ذهنه بأقوال الصحف . ومن الخيال بل ومن الهوس تربيتة على
أن من حقه أن يفكر ويعمل بنفسه وان يأمر ويسود فى حين ان وظيفته الطبيعية
هى ان يكون آلة فعالة مطواعة بين ايدى « الطغاة وجماعة السهر مان » الذين
يتنافسون في السيطرة على العالم

وفى هذه الحالة يتضح ان الدولة تهتم النخبة الممنازة الى الحد الاقصى
باعتبارها أداة للسيطرة على الجماهير وقد لاحظ نيتشه عدا ذلك ان من الممكن
ان تكون الدولة حتى فى نظامها العسكرى والوطنى مدرسة صالحة ومفيدة لمن
يسود العالم فى المستقبل

وتبين له أن العسكرية هى العلاج الفعال للانحطاط . ولم يحجم نيتشه عن
التصريح بأنه يسر لترقى العسكرية فى أوروبا . ورأى ان الجلمية التى تنقاد
لغرائزها الكهينة فتستنكر الحرب والفتح تصير قابلة للانحطاط والديمقراطية
وسيطرة جماعة التجار وان المحافظة على الدول الحربية هى الوسيلة الوحيدة التى
تتيح بقاء الانسان « القوى » فى أوروبا ورسم نيتشه برنامجا للمستقبل يشمل
التربية الفنية القوية ثم الخدمة العسكرية بحيث يصير كل فرد من الطبقات العالية
خابطا ومهما كانت استعداداته .

ومهما كانت الوطنية ضيقة ومحدودة ، فمن الممكن أن يكون لها نفعا
وتأثيرها الحسن من حيث أنها تبقى على التنافس بين الدول وتجعل الحروب
لازمة وتستحث على نشأة العبقرية الحربية .

وأخيراً قل نيتشة إن الدولة لا تراعى أى قانون أدبى فى أفعالها ولا تشعر بالمسؤوليات ولا تبالى أن تفعل مالا يبيحه الرأى لآ نفسهم وأن الجماعات أشد « طيبة » وإخلاصاً من الأفراد الذين يبلغون صغارهم أن ينادوا فى شهواتهم إلى الحد الأقصى . والجمعية لا تتصف بمحبة الآخرين إنما يعد من مهارة الفرد أن يكون أرحمياً محباً للآخرين . والجمعية لا تعتبر « الفضيلة » إلا وسيلة للقوة والنظام . وأحكامها الهامة إنما هى أحكام مطابقة الواقع وللحقيقة كل المطابقة . لا تتقيد بأية قاعدة خلقية وتقتصد إلى تقديس الشهوات النافعة لحفظ النوع وتمجيد القوة وتدخل عليها الطائفة . وعلى النقيض من ذلك تزعج ضمائر أولئك الذين يعرضون المجتمع للخطر . أنها تجعلهم فى عزلة . إذ تحيطهم بجو من الريبة وعدم التساهل والقسوة وتعاملهم معاملة الأشرار فتجعلهم مرضى إذ تشعرهم بأنهم شواذ فى المجتمع . وخلاصة القول أن الدولة لا تسعى إلا لجرد المحافظة على بقائها بأن تحط من شأن الفرد إلى درك العبودية أو العجز . وهى بهذا الاعتبار نموذج للسرمان بل هى الأداة الهائلة التى ينبغي أن يستعين بها هذا الأخير على تأييد سيطرته الدائمة على الجماهير . هذا ما يستخلص من روح الفلسفة الأخيرة لنيتشه .

وما تقدم يقين أن نيتشه تراوح فى الرأى بين مذهبين كل منهما اسمى قيمة من الآخر : الحرية والدوام . فهو من جهة كان المحرر الكبير والمفكر المستقل الرأى وصاحب مذهب الفردية الشديد التعصب لمذهبه الذى يريد ألا يقف أمام العبقرية أى عائق أو قيد وأن تكون طليقة حتى من القانون الأدبى وإن يحولها الاستقلال الذاتى التام . وبناء على هذا المذهب صار عدواً للدولة التى لا تعتمد بظهور العبقرى الذى يهدد على الدوام استقلالها والذى يبعث إخضاعها لغاياته المنطوية على الكبر والانانية والذى يريد أن يفرض عليها قانونه . فأعلن أن السرمان يكون حيث لا تكون الدولة .

ولكنه من جهة أخرى كان ذلك الخالق العظيم الذى طالب قبل كل شيء بالدوام

لأعماله وشمل بهذا المذهب المنظور على الاعجاب، الآثار التي تغلبت على الزمن مثل الامبراطورية الرومانية والكنيسة الكاثوليكية ودعا الى ظهور حاكم يسود الارض . حاكم مستبد يحصل به قطع الارقاء على الرضا اللازم وعلى سبب بقائهم . ورغب في قيام « طاغية » . مهيب ينظم استغلال العالم طبقا لمبادئ العمل ويحقق الحلم الذي طالما شغل اذهان كبار الفاتحين بوضع حد لفوضى « الدول الصغيرة » في اوروبا والسيطرة على العالم كافة — ويقال بعبارة أخرى ان نيتشة حرر السبرمان من سيطرة الدولة ، وفي الوقت نفسه رأى أن الدولة أداة لازمة لزيادة السبرمان . وعظم شأن هذا المذهب عنده وهو المذهب الذي يمكن أن نسميه امبرياليا كاثوليكيًا ، وقوى على حسابه مذهب الحرية في غضون السنوات الاخيرة من حياته نرى من الميسور التوفيق بين وجهة نظر الدوام ووجهة نظر الحرية . وهل نجح نيتشة نفسه في التوفيق بينهما توفيقًا تامًا ؟ هذا مالا نستطيع ان نؤكدده . ويوضح ما نحن بصددده ان نيتشة بقى في آخر الامر موضع ريبة من الاحزاب الوطنية والاشتراكية ومن المحافظين الذين يرتاعون من مذهب المنفسد في السبرمان ومن انصار الحرية الذين ينظرون الى رأيه في أن تحكم اقلية صغيرة من السبرمان قطعيا عظميا من الارقاء كحلم ايتوبى خبيث . وميزة نيتشة الجوهرية انه نظر بجلاء الى مسائل العصر الحاضر التي حيرت الازهان — مسألة « المكايزم » حسب تعبير « راتناو » ومسألة توحيد أوروبا ومسألة تكوين نخبة ممتازة وشكل من حكومة السبرمان — ويسط ذلك بأنهم الاخلاص دون أن يحاول تضليلها بحلول سهل فيها التفاؤل أو ان يلطف من خطورة تلك المسائل باستعمال التعبيرات المتفق عليها . وأضيف الى ما تقدم أن من الواضح ان المسألة الاقتصادية لم تكن في نظر نيتشة ذات أهمية أولية كما يتصور اغلب معاصريه فقد جعلها نيتشة مقيدة بالمسألة الفلسفية . فانه يستدل من تحليل فكرة نيتشة ان القوى التي تطمح اليها الارادة ذاتي بتغيير السبرمان ليست في الواقع خيرا محسوسا وليست بسيادة الملك على رعاياه ولا

التأند على جنوده بل هي أدنى بكثير من الساطة التي تنتجها حيازة الذهب .
وهي لا ترمى الى تكوين امبراطورية واسعة ولا في جمع ارزاق و ثروات في ازدياد
مطرد ولا في الحصول على حالة اتم رفاهية واعظم رخدا وزينة . انما القوة
باسمى اشكلها شيء غير مادي بل هو بعيد كل البعد عن المادية . قل « زارتوسترا »
في تعاليمه إنها « أفكار آتى محمولة على اكن الطير فتحرك العالم . فصاحب القوة
والعظمة في صورته السامية ، اذن ليس الرجل العسكري ولا رجل الاعمال ، كلا ولا
« سيد العالم » . انما هو الفيلسوف والمفكر الذي تكون لافكاره قوة انتشار كافية
تسحر الارواح وترسخ في النفوس . هو ذلك الكاهن الذي يعلم الغيب والذي
يصيغ قبل غيره الاحكام الاساسية القيمة . هو المعلم الذي يوحى الى الاخلاف
المتقبلة بالتجارب التي ترقى الجنس البشرى . هو العبقرية الدينية التي تمل
على الناس سيادة المبادئ التي يدبرون بها أفعالهم »

فلسبرمان للذي عناه نيتشة هو من الوجهة الجوهرية أحد أولئك المعلمين
الكبار الذين سيطروا على الارواح أمثال المسيح ومحمد وبوذا . وكذلك الحرب
التي اهم لها ليست تلك الحرب التي تدور في ميادين القتال والتي تبعد في عنفها
وعملها الارزاق والكنوز الفنية وحياة الناس والسعادة البشرية . انما هي للكفاح
الصامت غير المنظور . الكفاح الخفي الذي يجري في أعماق النفوس بين المبادئ
العظيمة الكفيلة بتدبير حياة البشر والتي تقرر في آخر الامر مصير التطور العام .
فان الغرض من الحرب المادية المنظورة انما هو سيطره شعب أو عنصر وتحكمه .
ولكن الحرب الروحية تحدد ما يمكن ان نسميه بالمصير الديني للانسانية . فلانسان
الذي يطمح بكل قوى نفسه الى سيادة فكرة مدبرة للانسانية وفوز مثل ديني اعلى ،
قدما كان أو حديثا ، هو المتشيع الخالص لمذهب نيتشة : أما من يتحمس لفوز
الوطن أو العنصر أو الحرب فلا يحق له ان يدعى الانتساب لنيتشة

لذلك لا نحى اليوم من انصار نيتشة غير فئة قليلة. اوانك الذين اطلق عليهم اسم الباحثين الذين كانوا بالامس غارقين فى مادية حضارتنا المولعة بالبذخ ووسائل النعمة والذين يثشدون السلامة اليوم فى التجديد الروحى للانسانية . على هذابقى نيتشة، وهو أحد كبار المحررين لروح البشرى، بل أحد الذين استدلوا بأشد الاخلاص والشجاعة على السبيل الذى يخرجنا من ظلمات العدمية

مقطوعة غنائية

لحنها وغناها الاستاذ النابغة الموسيقار محمد عبد الوهاب

وانظمها أمين عزت المحجى

يرانى الناس مهتما وقابى	ترق فيه آلام الجفاء
ويرضىنى رضاؤك عن عذابى	ويطربنى ابتسامك من بكائى
خيالك شغلى عن كل فكر	وحبك مبرئى من كل داء
تنامين اللىالى فى هناء	وأسهر راعيا نجم السماء
فما شاهدت فى الأحلام طيفى	فقص عليك أوجاعى ودائى
وإنى قد تلفت فلست أرجى	وصرت كائن شبح الفناء
صمت وقد يكون الصمت شعرا	يردد فى الورى لحن الشقاء

*
* *

أذ الحب ما قاسيت منه	وخالط وصله مر الجفاء
تعمل فيه صيحك بالأمانى	وتختم فيه ليالك بالبكاء
ويشجيك الضنى فتظل تبكى	وتشر فى بكائك بالهناء